طرائف من ادب العرب

(٥)

الرشيد ونكبة البرامكة

« لما صلب الرشيد جعفر البرمكي امر بابقائه على الجذع مدة وعيّن لهُ حراساً لئلاّ ينزلهُ الناس ليلاً وكان السبب في الامر بانزالهِ انهُ سمع شخصاً يخاطبهُ بهذه الابيات وهو معذّب:

وهذا جعفر في الجذع يمحو محاسن وجههِ الزيح القتامُ
اما والله لولا خوف واشٍ وعين الخليفة لا تنامُ
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلامُ »

وفي المستطرف للابشيهي حكاية نسيت في مكان آخر للاتليدي فحواها ان شيخاً في ايام المأمون كان يزور آثار دور البرامكة ليلاً ويذكرهم كثيراً ويندبهم ثم ينصرف حتى اذا كانت ليلة من الليالي وقد درى المأمون بهِ وانتدب بعض الجواسيس لتتبّع وثائهِ اذا بهِ ينشد :

ولما رأيت السيف جندل جعفراً ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع ابيات غيرها . فلما فرغ من انشادهِ استيق الى حضرة المأمون وقيل لهُ في ذلك فذكر للخليفة ما كان لهم عليهِ من الايادي الحضرة وما آل اليهِ امرهُ بعدهم من حكاية اشبه بالخرافة منها بحادثة واقعية لفرط ما نالهُ من جودهم . قال ابرهيم بن ميمون فرأيت المأمون وقد دمعت عيناهُ وظهر عليهِ حزنهُ وقال « لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ وايام فاشكر ولهم فاوفِ ولا حسانهم فاذكر »

وقد بلغ من استطارة صيت البرامكة في الكرم ان الناس في الشرق نسوا حاتماً او تناسوهُ واعطوهم محلهُ فضربوا بهم المثل في الجود . ورُبّما ساعدهم على نسيان حاتم او تناسيهِ كونهُ سابقاً ايام بنحو قرنين من الزمان والناس شؤونهم ميّالون الى التخلص من كل قديم والتعلق بكل جديد . اما نكبة البرامكة المشار اليها فقد قصّها ابن الاثير في كاملهِ والمسعودي في مروجهِ فقال الاول ما خلاصتهُ

وكان سبب ذلك ان الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن اختهِ عباسة بنت المهدي وكان يحضرهما اذا جلس للشرب . فقال لجعفر زوّجكها لتحل لنا النظر اليها ولا تقربها .

فاجابهُ الى ذلك فزوّجها منهُ وكانا يحضران معهُ ثم يقوم عنهم . فولدت لجعفر غلاماً وخافت الرشيد فسيرتهُ مع حواضن لهُ الى مكة . فعلم الرشيد ذلك

وقيل كان السبب ان الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الى جعفر فحبسهُ ثم دعا بهِ ليلة وسألهُ عن بعض امرهِ فقال لهُ اتق الله في امري فوالله ما احدثت حدثاً ولا آويت محدثاً . فرق لهُ وقال اذهب حيث شئت ووجه معهُ من ادّاهُ الى مأمنهِ . وسأل الرشيد جعفر عن يحيى فقال هو بحالهِ في الحبس . فقال بحياتي . فقطن جعفر فقال لا وحياتك وقصّ عليهِ امرهُ فقال نِعمّا فعلت . فلما قام عنهُ قال لتلقي الله ان لم اقتلك

وقيل كان من الاسباب ان جعفراً ابتنى داراً غرم عليها عشرين الف الف درهم (نحو ستمائة الف جنيه) فرفع ذلك الى الرشيد وقيل هذه غرامتهُ على دار فما ظنك بنفقاتهِ وصلاتهِ وغير ذلك فاستعظمهُ

قيل وكان من الاسباب ايضاً ما لا تعدهُ العامة سبباً وهو اقوى الاسباب ما سمع من يحيى بن خالد وهو يقول وقد تعلق باستار الكعبة في حجتهِ هذه : اللهم ان كان رضاك ان تسلبني نعمك عندي فاسلبني . اللهم ان كان رضاك ان تسلبني مالي وولدي فاسلبنيهِ الاّ الفضل . ثم ولّى فلما كان عند باب المسجد رجع فقال مثل ذلك وجعل يقول اللهم انهُ سمحٌ بمثلي ان يستثني عليك — اللهم والفضل . وسمع ايضاً يقول اللهم ان ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك . اللهم ان كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا وان احاط ذلك سمعي وبصري وولدي ومالي حتى يبلغ رضاك . ولا تجعل عقوبتي في الآخرة فاستجيب لهُ

ولما رجع الرشيد من الحج ارسل مسروراً[1] الخادم ومعهُ جماعة من الجند الى جعفر ليلاً وعندهُ ابن بختيشوع الطبيب وابو زكار المغني وهو في السمر وابو زكار يغني

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليهِ الموت يطرق او يغادي
وكل ذخيرة لا بدّ يوماً وان كرمت تصير الى نفاد

قال مسرور فقلت لهُ يا ابن الفضل الذي جئت لهُ هو والله ذاك قد طرقك اجب امير المؤمنين فقال حتى أوصي فالتفتَ رسل الرشيد تحتني فمضيت بهِ اليهِ فاعتنقهُ وهو في فراشهِ فقال التني برأسهِ . فاتيت جعفراً فاخبرتهُ فقال الله الله . والله ما امرك الاّ وهو سكران ثم قتلهُ بعد تردد كثير ومراجعة الرشيد مراراً لعلهُ يعفو عنهُ . ولما قتل جعفر قيل لابيهِ قتل الرشيد ابنك . قال كذلك يقتل ابنهُ . قيل وقد أخرب ديارك قال كذلك تخرب ديارهُ .

(١) والمسعودي يسميهِ بسرّ كما مرّ

فلما بلغ ذلك الرشيد قال قد خفت ان يكون ما قالهُ لانهُ ما قال شيئاً الا ورأيت تأويلهُ وهاك ما قالهُ المسعودي ملخصاً :

كان ايقاع الرشيد بالبرامكة في سنة سبع وثمانين ومئة (نحو سنة ٨٠٤ مسيحية) واختلف في سبب ذلك فقيل احتياز الاموال وانهم اطلقوا رجلاً من آل ابي طالب (وهو يحيى بن عبد الله كما جاء في رواية ابن الاثير) كان في ايديهم . وقيل غير ذلك والله اعلم

ثم ذكر حكاية جعفر والعباسة مطولاً ولكنهُ أبان ان اجتماعهُ بها كان بحيلة دبرتها بالاتفاق مع امهِ فلما ادرك ما فعل قال لعباسة لقد بعتني بالثمن الرخيص وحملتني على المركب الوعر وانظري ما يؤول اليهِ حالي . وبلغ الرشيد خبر العباسة من زبيدة زوجتهِ ام الامين[1] فامر خادمهُ ياسراً بقتل جعفر ففعل بعد تردد كثير كان السبب فيهِ مكانة جعفر عند الرشيد فلم يصدق ياسر ان سيدهُ يأمرهُ بقتلهِ . ثم امر بضرب عنق ياسر قائلاً اني لا اقدر ان انظر الى قاتل جعفر

وقد رجعت الى السكلوبيديا البريطانية فرأيتها تقول في نكبة البرامكة ما يأتي :

« وحكاية نكبتهم مفعمة بالخيال واشبه شيء بالاساطير ولكنها ليست بعيدة الاحتمال . فقد كان هرون يسرُّ سروراً خاصاً بعشرة اخيهِ العباسة وجعفر . فلكي لا يفترق عنها من غير اخلال بالرسوم والآداب المرعية انعمها بعقد صيغة زيجة صورية يملك بها جعفر مخالسة العباسة والنظر اليها والاجتماع بها في مجلس الرشيد لا غير ولكن شروط هذا العقد لم يعمل بها فلما بني الى الرشيد ان العباسية حامل امر فقبض على جعفر وقطع راسهُ وحبست سائر اسرتهِ ونزعت املاكها منها ولم يستثنَ الا محمد اخو يحيى . والمرجح ان من الاسباب المهمة في حنق الرشيد عليهم وشاية جلسائهِ من اهل بطانتهِ وقولهم لهُ انهُ بات العوبة في ايدي عائلة قوية » . وقالت في موضع آخر . و يظهر ان السبب الاعظم في ايقاع الرشيد بهم سوء استعمال السلطة التي كانت لهم فكثر حسادهم وانتهزوا الفرص لايغار صدر الرشيد عليهم واشعارهِ بانهُ ليس خليفة الا بالاسم فقط . ومما زاد تخطهُ عليهم في رأي بعض العارفين اطلاقهم سراح يحيى بن عبد الله »

على ان ما حملني على الاستغراب تجاهل بعض الكتاب لهذا الحادث الجلل كأن لم يكن كجلال الدين السيوطي مثلاً صاحب المؤلفات المعروفة في تفسير القرآن وصاحب تاريخ الخلفاء وهو من كتّاب اواخر القرن التاسع واوائل العاشر للهجرة (اواخر الخامس

(١) انما ابن الاثير ليقول ان امة كي جارية من جواريها وقع بينها شرٌّ فاشتكت الى الرشيد

عشر واوائل السادس عشر للمسيح) . فانهُ اتى على ترجمة الرشيد في ست صفحات كبيرة فذكر ما لهُ وما عليهِ واشار الى كل دقيقة من دقائق اعمالهِ ولكنهُ لم يذكر ابقاعهُ بالبرامكة لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا سمّى واحداً منهم الاَّ يحيى بن خالد وذلك مرتين فقال في الاولى ان يحيى بن خالد البرمكي اشار على الرشيد بعدم الوصل ما بين بحر الروم و بحر القازم (الاحمر) كما كان في نيتهِ بحجة ان الروم يخالطون الناس من الحجد الحرام وتدخل مراكبهم الى الحجاز فتركهُ . وفي الثانية اشارة صغيرة الى استيزار يحيى بن خالد حيث قال « ولما ولي الرشيد الخلافة واستوزر يحيى بن خالد » . وفي موضع ثالث اشارة الى البرامكة حيث قيل « قال الجاحظ اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيرهِ وزراؤهُ البرامكة وقاضيهِ ابو يوسف وشاعرهُ مروان بن ابي حفصة ونديمهُ العباس بن محمد عم ابيهِ وحاجبهُ الفضل بن الربيع ابنه الناس ومغنيهِ ابرهيم الموصلي وزوجتهُ زبيدة »

فاذا لم يفسّر سكوت السيوطي عن ذكر نكبة البرامكة بشكهِ فيها فلا ادري بماذا يفسرونهُ وهذه النكبة اشهر الحوادث في تاريخ الرشيد باجماع مؤرخي العرب . اما تفسيرهُ بالنسيان فلا يسلّم بهِ عاقل . ولكن يقال من جهة اخرى انهُ ان كان السيوطي يشك في الحادث فقد كان يشير الى ذلك الشك ولو بكلمة

وقد رأيت ابن خلدون يذكر نكبة البرامكة و يصفها وصف الحوادث الواقعية التي لا ريب فيها ولكنهُ انكر حادثة العباسة وجعفر في فصل طويل عقدهُ على اسباب النكبة ودافع فيهِ عن عرض الرشيد في اختهِ العباسية دفاعاً سامياً سداهُ الحمية العربية ولحمتهُ المروءة فقال في بدء دفاعهِ « ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما يتقلونهُ كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اختهِ مع جعفر بن يحيى بن خالد » الى ان قال « وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وابويها وجلالها وهي ابنة خليفة واخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومتهِ وامامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها . قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين بعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش . فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهبا عنها واين توجد الطهارة والذكاء اذا فقدا من بيتها » . . . . الى ان قال « وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واستجارهم اموال الجباية فغلبوا الرشيد على امرهِ وشاركوهُ في سلطانهِ » وذكر بين الاسباب حادثة يحيى بن عبد الله التي ورد ذكرها آنفاً . وابن خلدون متقدم على السيوطي بمئة عام

نقيب